

صفحة الدراسات في «البناء»، أنشئت لتكون مساحة للابحاث العلمية المتعلقة بشتى المواضيع

ذات الصلة في قضايا الأمة والعالم العربي.

وهي إذ تتسع لمثل هذه الدراسات تبقى مجالاً مفتوحاً للحوار وطرح الإشكاليات الفكرية

## تحولات ومسارات... باتجاه المستقبل

**زهير فياض**

إن تحولات العقود الأخيرة بأحداثها ومساراتها وتشابكاتها، تفرض نفسها في الواقع العالمي وعلى كل المستويات، بالنظر إلى تحدياتها ومخاطرها وتأثيراتها وتداعياتها على حياة شعوب وأمم بأسرها.

فنحن نعيش في عالم يتغير بوتائر سريعة، وهذه التغيرات تطاول البنى والإطر والمفاهيم والثقافات ومنظومات القيم التي تحكم العلاقات بين البشر شعوباً وأمماً ومجتمعات وحتى أفراداً.

إن قراءة معقفة في هذه التحولات تفترض العودة إلى جذورها، وإلى ظروفها التاريخية وإلى المعطيات الموضوعية التي رافقت نشأتها والتي أسست لكل هذه المتغيرات والأحداث التي مر بها العالم، ولا سيما عالمننا العربي، ومنطلقنا أي المشرق العربي بشكل خاص (بلاد الشام والعراق أو سورية الطبيعية التاريخية).

فالقبع التاريخي ضروري لسبر أغوار كل هذه التطورات الحاصلة وتحليلها وفهم أسبابها ودينامياتها ومآلها وتداعياتها ونتائجها على كل المستويات.

بيد أن نطاق هذا البحث لا يتعدى في الإطار الزمني والمكاني التطورات الحاصلة على مستوى الهلال الخصيب (المشرق العربي) أي بلاد الشام والعراق منذ العقود الأولى للقرن العشرين، وذلك انطلاقاً من كون هذه المنطقة تشكل إطاراً جغرافياً وتاريخياً وحضارياً له موقع المركز في تاريخ الإنسانية جمعاء.

فبلادنا كانت منذ القدم تشكل الوعاء الإنساني والحضاري الذي يحمل إرثاً إنسانياً عالمياً بدءاً من الشرائع والقوانين والدول والملك والحواضر التي قامت في ما يشبه مركز العالم القديم، هذا الإرث الذي شكل المركز والقاعدة والأساس لتطور الإنسانية جمعاء في مراحل لاحقة في مجالات السياسة والإدارة والعلوم والتجارة والصناعة والدين والقيم والأخلاق والفلسفة وغيرها من مناحي الفكر الإنساني ذي الطابع العالمي...

ولعل الموقع الاستراتيجي لبلادنا باعتبارها صلة الوصل بين الشرق والغرب، وعقدة مواصلات مهمة على خطوط التجارة والنقل العالمية قد ساهم في إضفاء قيمة إضافية وأهمية استثنائية للواقع الجيو –سياسي الذي يحكم منطقتنا، وفي الوقت ذاته، جعل بلادنا محط أنظار القوى العالمية الاستعمارية التي تلطم للهيمنة والسيطرة وأمتلاك القرار العالمي وبالتالي التأثير في مسار الأحداث في العالم.

### لمحة تاريخية

لا شك في أن الحرب العالمية الأولى التي شهدها العالم في العقد الثاني من القرن العشرين تركت بصماتها بوضوح على كامل المراحل التاريخية التي تلتها وبشكل خاص في عالمننا العربي والمشرق العربي، إذ أن الأحداث الكبرى والتطورات التي حصلت في بلادنا بعد الحرب العالمية الأولى كانت كلها من نتاجها وتداعياتها، ونستطيع القول بكل ثقة إن الخرائط الجيو-سياسية التي رسمها المنتصرون في تلك الحرب شكلت الأطر السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية التي تحركت في داخلها حركات الشعوب خلال العقود التي تلت، طبعاً مع الأخذ بعين الاعتبار الواقع السياسي والعسكرية والاقتصادية التي تميزت عن الحرب العالمية الثانية وتوازنت القوى التي أرسيتها أيضاً حتى أيامنا هذه.

إن أخطر الاتفاقات والمعاهدات التي مهدت وحدة بلادنا ومجتمعنا تم عقد ما أعقاب الحرب العالمية الأولى من وعد بلفور إلى اتفاق ساكس – بيكو، أي تواطؤ دول الاستعمار الغربي والأوروبي بشكل خاص آنذاك على إقرار خطة إقامة «وطن قومي لليهود على أرض فلسطين»، ما شكل التهديد الوجودي الأساسي لمجتمعنا وعالمنا العربي منذ تلك الأونة وحتى يومنا هذا، وقد تراقف كل ذلك مع تركيب أشكال سلطوية في دول هزيلة ضعيفة، تعاني خلا بنيويًا في تركيبها وبهيكلا ويتقدم والنمو في شتى المجالات، وما زلنا حتى اللحظة نعيش تداعيات ونتائج وانكاسات كل هذه التركيبة الثقيلة، أضف إلى ذلك سيطرة استعمارية جبشعة ساهمت في نهب ثرواتها وخبراتها والقبض على مقاليد السلطة والقرار والتأثير في كل الواقع الإنساني الاجتماعي السياسي الحضاري المعاش في بلادنا.

لماذا العودة إلى هذه الوقائع؟ ولماذا سيرٌ أغوار هذه المسارات في تاريخنا السابق؟

السبب بسيط يتمثل في هذا التسلل المنطقي التاريخي لما تم رسمه في العقود الأولى من القرن العشرين.

بالطبع، هناك مسارات متداخلة ومتشعبة حكمت تطور الأحداث خلال المراحل التاريخية السابقة، وكلها تتلطف من حقيقة استلاب عييشها إنساننا كنتيجة منطوية لغياب الوعي، واضمحلال الشخصية الوطنية والقومية والإنسانية والحضارية وانسحاقها في آتون الصراعات متعددة الأشكال والتباوين والتي شغلت العقل والتفكير وعطلت كل إمكان للتقدم الصحيح، والتطور الإيجابي البناء، والوصول إلى الاستقرار النسبي المنشود الذي يشكل قاعدة الأمان الحقيقي لأي مجتمع والحاضر للاستمرار والحفاظ على الوجود.

وإذا ما عدنا إلى الوقائع، شكل وعد بلفور الحلقة الأولى في حلقات التآمر المتمثل في زرغ كيان الاستيطان اليهودي السرطاني على أرض فلسطين والمحيط الطبيعي، حيث أن المشروع الأصلي هو الاستيطان والتمدد في حركة الغالبية للتاريخ والحضارة والبنى، وإسقاط كل مداميك الحضارة والهوية المنشكلة في بلادنا عبر تاريخ طويل من الحراك والتفاعلات إنسانية العميقة التي ساهمت في بلورة معالم هوية إنسانية حضارية جذورها ضاربة في أعماق حضارات الإنسان منذ القدم.

وكما في نهاية الحرب العالمية الأولى، كذلك في أعقاب الحرب العالمية الثانية تم أخذ قرارات عالمية على مستوى

## البناء

والمسائسة وغيرها، تنشيطاً لدور الثقافة في الصيرورة الاجتماعية.
علماً أن الآراء التي ترد على

مساحة الصفحة تعبر عن رأي أصحابها وليست بالضرورة مطابقة لقناعات الصحيفة.
لأنه انطلاقاً من القناعة الراسخة بضرورة خلق حوار فكري حول القضايا والإشكاليات كافة وما

والتى تفرض نفسها على صاحب القرار والمتقف وقادة الرأي والمواطن في أي موقع كان،

كانت صفحة الدراسات في «البناء» هي الترجمة العملية لهذه القناعة.
أملين أن تشكل هذه الصفحة

مساحة فكرية ـ سياسية تعنى بعموم الوطن والمواطن، تدرس الحاضر لترسم المستقبل.

والتى تفرض نفسها على صاحب القرار والمتقف وقادة الرأي والمواطن في أي موقع كان،
كانت صفحة الدراسات في «البناء» هي الترجمة العملية لهذه القناعة.
أملين أن تشكل هذه الصفحة

مساحة فكرية ـ سياسية تعنى بعموم الوطن والمواطن، تدرس الحاضر لترسم المستقبل.



المتاريس خلال الحرب اللبنانية

حضارتين إسلامية يتم لصق صفة الإرهاب بها، وبين حضارة غربية مسيحية متسامحة تحارب من أجل الحرية والتطور والنمو.

وقد اندرج غزو أفغانستان تحت هذا العنوان «صراع الحضارات والمعركة ضد الإرهاب»، وكذلك اجتياح العراق في عام 2003، أي بكلام آخر، شكل عنوان «الإرهاب» ونظرية صراع الحضارات» الأساس العقائدي الذي اعتمدته الإدارة الأميركية لتسيوق مشاريع سيطرتها على ثروات الشعوب ومصادرة خيراتها ولا سيما مصادر الطاقة حول العالم ولا سيما في منطقتنا العربية، وطبعاً فرض مشاريعها ورؤاها السياسية التي تتقاطع في بلادنا مع المشروع الصهيوني بكل تجلياته واستهدافاته.

وقد استهدفت هذه المشاريع وبشكل مباشر ضرب كل حركات المقاومة في بلادنا وتاليف العالم عليها، ومحاولة الصاق تهمة الإرهاب بها، فكانت أحداث لبنان في عام 2005 واغتيال الحريري والحملة على حزب الله في لبنان وحركة حماس في فلسطين، وعلى سورية باعتبارها العمق الاستراتيجي لكل حركات المقاومة في بلادنا، وما زالت هذه الحملة مستمرة بشكل جديدة تتمثل في محاولات باشرة لإحداث فتن طائفية ومذهبية لا سيما منها سنية –شيعية وإدخال المنطقة في حروب استنزافية داخلية تدمر الهوية والكيانات السياسية القائمة وتعيد رسم خرائط جيو –سياسية على هذه القاعدة، وقد غدا مشروع التقسيم الجديد للمنطقة العنوان الحالي لكل الأحداث التي تجري من شمال أفريقيا إلى كل المنطقة العربية ولاسيما المشرق العربي ومصر.

### أكذوبة الربيع العربي وإرادة التغيير المسلوبة

شكل عام 2011 بداية تغييرات دراماتيكية لافتة متزامنة في العديد من الدول العربية من تونس إلى مصر إلى ليبيا ومن بعدها سورية، لا شك أن واقع النظام العربي الرسمي يحمل في طياته بذور الثورة والرفض والتغيير، فالظلم وعدم المساواة وغياب الحريات وسوء توزيع الثروات القومية والاستغلال كلها أسباب كانت في صلب الحراك الذي شهدته هذه البلدان، فالعامل الداخلي أساسي ويعبر عن توق هذه الشعوب للتغيير والانعتاق من واقعها البائس.

بيد أن تطور الأحداث أخذ اتجاهات تجاوز بكثير أصل الحراك، وكان واضحاً أن عملية استلاب هائلة لهذا الحراك قد حصلت، وتم أخذ الحراك إلى مكانٍ آخر ينصل بمشاريع مشبوهة ومكشوفة لها علاقة بإعادة رسم الخرائط الجديدة للمنطقة بأسرها تحقيقاً لمصالح دولية تتصارع في بلادنا بالنظر إلى الموقع والأهمية الاستراتيجية في الأمن والسياسة والاقتصاد.

ولعل الحدث السوري هو الأكثر دلالة على ازواجبة المعابر، وعلى حقيقة الاستهدافات، وعلى طبيعة المشاريع التي تيراد تنفيذها وصولاً إلى التقسيم والتفتيت وترسيخ هيمنة «إسرائيل» على المنطقة.

### آفاق التحولات الحالية ومساراتها المستقبلية

ما زلنا نواجه خيارات صعبة وتحولات مفصلية سترك بصماتها على الحاضر والمستقبل، ولا إمكانية للخلاص من مستنق الانقسام والتشظي والاندثار إلا بفكر نهضوي خلاق مبدع يرتكز إلى قواعد راسخة في العقل تؤسس لانطلاقة جديدة تعيد صياغة الحاضر والمستقبل بما يتلاءم وطموحاتنا وطموحات أجيالنا الحاضرة والآتية بالوحدة والتقدم والتنمية والازدهار والاستقرار والحرية والاستقلال.
وهذه القواعد شكلت عناوين انطلاقا لكل حركات التحرر القومي النهضوي منذ بدايات القرن العشرين وحتى أيامنا هذه، وترتكز حول فصل الدين عن الدولة، تعزيز فكرة المواطنة، تعزيز الحريات، تأكيد الهوية القومية الجامعة لكل أبناء الوطن، المساواة النسبية في توزيع الثروات الوطنية، العدالة الاجتماعية، منع الاستغلال وسوء استعمال السلطة، تعزيز الرقابة، تعزيز دور الدولة في حماية المجتمع وفي تعزيز الاستقرار والأمن والحريات.

خياراتنا في الثقافة والتربية وبناء الإنسان الجديد... هي خيارات النهضة والعقل والعلمنة والهوية والانتماء إلى التاريخ والجغرافيا والحضارة والإنسان.



لكل المراهنين على سراب التطبيع والإلحاق والهيمنة «الإسرائيلية» على لبنان ومحيطه القومي، وقد تمت آنذاك إدارة معركة المواجهة لكثير من الحكمة والدقة والصبر والتاني.

على المستوى السياسي تعددت الأطر السياسية التي قامت في لبنان والتي جمعت القوى الوطنية الراضة للتقسيم والتفتيت والمقاومة للاحتلال «الإسرائيلي» في آن، وتم عقد مؤتمرات سياسية عدة لحل الأزمة اللبنانية في لوزان وغيرها، لم توصل إلى أية نتائج، إلى أن وصلت الأطراف اللبنانية في لحظة إقليمية ودولية مناسبة إلى اتفاق الطائف برعاية سعودية –سورية وتحت مظلة دولية تقاطعت فيها الرؤى والمصالح الدولية والرغبة الداخلية اللبنانية فدخل لبنان مع الطائف مرحلة جديدة، كان عنوانها إرساء دعائم دولة الطائف التي شكلت متنفساً مساحة للاتقاف الإنفاس وللتنعم بفترة من الاستقرار بالنظر طبعاً إلى الصوهارات البنوية الموجودة في قلب هذا الاتفاق والذي تبين لاحقاً أنه –بطبيعة الحال – يمثل تسوية سياسية مؤقتة عكست توازنات قوى محلية وإقليمية ودولية، أو مرحلة انتقالية تحاول الأطراف مجتمعة إعادة تفعيل قواها استعداداً للمستقبل.

فلسطينياً، شكلت حرب المخيمات في الثمانينات مفصلاً أساسياً، إذ أنها حملت في طياتها بذور الاختلاف في الداخل الفلسطيني حول آفاق الصراع المستقبلي من أجل فلسطين، وكانت تمثل هذه الحرب صراع الخيارات الدائر حول مستقبل فلسطين.

وبالطبع، كان واضحاً أن الصراع على امتلاك ورقة المخيمات الفلسطينية بما تمثله من زخم وشرعية شعبية سيغطي الطرف المنتصر (بين هالالين) موقع قوة، أما للمضي قدما في عملية التفاوض وعقد التسويات السلمية في حال كان المنتصر يمثل تلك وجهة النظر، أو في المقابل انتصار الطرح الذي يدعو إلى المقاومة والتمسك بالحق القومي، وإعطاء الصراع طابعه القومي الطبيعي باعتبار أن «إسرائيل» تمثل خطراً وجودياً ليس فقط على فلسطين بل على كل المحيط الطبيعي من العراق إلى بلاد الشام أي على كامل سورية الطبيعية التاريخية.

وبالنسبة، مالت كفة القوة لجهة قوى المقاومة، وترافق هذا زمنيا مع اندلاع الانتفاضات الفلسطينية الأولى والثانية التي أنتجت أن الخيار المقاوم هو الأسلم والأقدر على إحقاق الحق وتحقيق الإنجازات، وقد أنتجت المقاومة الوطنية في لبنان نظرية أن «العين تقاوم المغز» وأن إرادة الشعب المقاوم إذا ما اقتربت بالفعل الفوري المقاوم تستطيع أن تحقق الإنجازات، فمن العمليات الاستشهادية في إطار جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية إلى تزخيم العمليات المقاومة المسلحة ضد الجيش «الإسرائيلي» على أرض لبنان في إطار «المقاومة الإسلامية» لاحقاً، كان التحرير في عام 2000، لينبت بالعين المجردة أن الإرادة فعلها حقاً بالفعل إنجاز التحرير، وقد شكل هذا الانتصار السند للشعب الفلسطيني في الداخل لتطوير نضاله الوطني بشتى الوسائل لتحقيق إنجاز التحرير على المدى الطويل، وأحداث خلل في المفهوم «الإسرائيلي» الوجودي مرحلياً.

هذه الانتصارات الميدانية عززت في عقل إنساننا ثقة بالذات كسرت المعادلات، وشكلت بداية تحرير لهذا العقل من كل المعطلات التي جمدت تطوره وارتقاءه، وحققت هذه الإنجازات خرقاً للصورة النمطية التي زراد الآخر تأييدها في أذهاننا لتعميق حالات الاستلاب المجتمعي والحضاري والإنساني لامتناه ومجتمعنا.

### صراع الحضارات

بدأت منذ تسعينيات القرن الماضي تظهر كتابات لكتّاب غربيين وأميركيين حول مفهوم صراع الحضارات ونهاية التاريخ، وكانت كلها تندرج في سياق التأسيس الفكري لتبرير السياسات الاستعمارية وأضفاء صفة شرعية أخلاقية عليها ليتسنى تسويقها واعتبارها واحدة من حقائق الصراع المستقبلي حول العالم.

بالطبع لا مجال للخوض تفصيلياً في تلك النظريات، ولكنها تتحور بطبيعة الحال حول تبرير الانقسامات والانشطارات حول العالم على قاعدة ثقافية ودينيّة وتواصليل هذه الانقسامات وتعميقها.

وجاء أحداث أيلول 2001 في السياق المرسوم لها لتؤكد صحة هذه النظرية حول انقسام عميق على مدى الكوكب بين

والسياسية وغيرها، تنشيطاً لدور الثقافة في الصيرورة الاجتماعية.
علماً أن الآراء التي ترد على
مساحة الصفحة تعبر عن رأي أصحابها وليست بالضرورة مطابقة لقناعات الصحيفة.

لأنه انطلاقاً من القناعة الراسخة بضرورة خلق حوار فكري حول القضايا والإشكاليات كافة وما



السادات وبيغن وكارتير يتصافحون بعد التوقيع على كامب دايفيد

المنتصرين في هذه الحرب طالوت مصائر شعوب بأسرها، وما سيما قرار إنشاء «دولة إسرائيل» وتشريعها وقبولها في «منظمة الأمم المتحدة» مما شكل سابقة خطيرة في تاريخ نشوء الدول والكيانات السياسية، وجريمة كبرى بحق الإنسانية.

ولعل التوازنات الدولية التي أرستها الحرب العالمية الثانية أرخت هي الأخرى بظلالها على العقود التي تلتها في ظل حرب باردة بين المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية والمعسكر الشرقي بقيادة الاتحاد السوفياتي السابق، هذه التوازنات ولدت أو ساهمت في توليد حروب وصراعات إقليمية متعددة غطت مساحتها كل القارات، ولكنها بقيت مضبوطة بإيقاع تفاهات ضمنية سلبية غير معلنة بين المحورين (الحرب الباردة).

واستمر الصراع مع الكيان الصهيوني في منطقتنا بشكل مختلفة ومتعددة، وكان العدوان على مصر في الخمسينيات ومن بعدها حروب 1967 و1973 وما بينهما من نشوء حركة المقاومة الفلسطينية وانطلاق ظاهرة التفاح المسلح الفدائي في إطار منظمة التحرير الفلسطينية وصناتها المختلفة والمتنوعة، كل هذه الأحداث والتطورات أسست للعقود الزمنية التي تلت وصولاً إلى أيامنا هذه.

الخلاصة المستقاة، تتمثل في هذا الترابط القوي بين الأحداث والتطورات في سياق المشاريع التي تهدف بشكل خاص إلى المزج أو التماهي بين المشروع الصهيوني باعتباره غزوة استيطانية إحلالية الغالبية لها مركزاتها العقائدية الثرواتية التلمودية وبين مشاريع السيطرة الاستعمارية الغربية وبخاصة الأميركية على الثروات الخام ومصادر الطاقة ولا سيما النفط والبتترول بالنظر إلى أهميته الاستراتيجية على حياة ومسار تطور الأمم والشعوب حول العالم، وأيضاً التماهي مع الرجعية المحلية في بلادنا والتي كانت تقبض فيها على مقاليد السلطة بكل وجوهها وأشكالها.

### مرحلة ما بعد السبعينات

إن مرحلة السبعينات من القرن العشرين كانت حافلة بالأحداث والتطورات والمتغيرات التي كانت تؤشر إلى مقاربات مختلفة في منطقتنا للصراع مع الكيان الصهيوني،

وجاءت حرب تشرين 1973 لتؤكد نظرية الاختلاف في قراءة طبيعة الصراع ومآله المستقبلية، بين نظرتين مختلفتين في الجوهر والمضمون، واحدة تسعى لإقامة تسوية سلمية مع الكيان الغاصب في فلسطين تخلى فيه عن الحقوق في الأرض والسيادة والحرية والاستقلال الحقيقي، وقد مثل هذا التوجه على سبيل المثال لا الحصر أنور السادات الذي قرر المفاوضات وذهب بعيداً في خياراته الاستسلامية، إذ زار فلسطين المحتلة ودخل ثقب المفاوضات مع العدو إلى أن قام بالتوقيع على معاهدة كامب –دايفيد التي أخرجت مصر من الصراع مع الكيان الصهيوني في صفقة تسوية هدفت إلى تصفية المسألة الفلسطينية وتصفية الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني في تحرير أرضه التاريخية لقاء مكاسب آتية لمصر إذ حصلت على جائزة ترضية في صحراء سيناء بشروط «إسرائيلية» مهينة.

وفي المقابل، برزت جبهة رفض شامل لهذا الاتفاق المشؤوم على المستويين الشعبي والرسمي قادتها سورية آنذاك وأبديتها بالشكل أغلب الدول العربية التي قطعت علاقاتها مع النظام المصري، وتم إخراج مصر من الجامعة العربية وعزلها سياسياً.

وتمحورت منذ تلك الأونة الصراعات في المنطقة حول الخيارات الأساسية المتعلقة باصل النظرة إلى هذا الصراع، وكانت كل جهة تعمل على تدعيم موقفها ومنطقها وعلى حشد الطاقات والإمكانات في هذا أو ذاك الاتجاه.
وكانت الحرب الأهلية في لبنان في جانب أساسي منها تندرج في سياق هذا الصراع المحموم في ظل المشاريع الدولية التي ازدهمت في تلك الأونة والتي تركزت بشكل أساسي على التفتيت والتقسيم لإضعاف الجبهة الشعبية القومية الراضة لتصفية المسألة الفلسطينية وتثبيت وجود «دولة إسرائيل» في قلب المعادلة الإقليمية وأضفاء شرعية دولية إضافية عليها.

لقد مثلت الحرب اللبنانية التي انطلقت فعلياً في 13 نيسان 1975 صورة مصغرة للواقع العربي والإقليمي والدولي، فقد شكلت هذه الحرب نقطة تقاطعات محلية وإقليمية ودولية متشعبة ومتعددة ومتنوعة، وتداخلت فيها الأسباب والعوامل

